تفسير ابن كثير

قد أورد أبو جعفر بن جرير C تعالى عند قوله تعالى : { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا } سؤالا فقال قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياء ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين (أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاما والمراد به البعض قال وهذا سائغ في اللغة (الثاني) أن يكون المراد بالنصر والإنتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمرود أخذه ا تعالى أخذ عزيز مقتدر وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط ا تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم ا تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم E إماما عادلا وحكما مقسطا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة ا تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة Bه عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [يقول ا تبارك وتعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب] وفي الحديث الاخر : [إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث بالحرب] ولهذا أهلك ا D قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق وأنجى ا تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحدا وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدا قال السدي لم يبعث ا D رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث ا تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها وهكذا نصر ا نبيه محمدا صلى ا عليه وسلّم وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصارا وأعوانا ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم له وقتل صناديديهم وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم فأنفذه ا تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين ا أفواجا ثم قبضه ا تعالى إليه لما له عنده

من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله D ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد } أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل قال مجاهد : الأشهاد الملائكة وقوله تعالى : { يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم } بدل من قوله : { ويوم يقوم الأشهاد } وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسره به { ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين } وهم المشركون { معذرتهم } أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية { ولهم اللعنة } أي الإبعاد والطرد من الرحمة { ولهم سوء الدار } وهي النار قاله السدي بئس المنزل والمقيل وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما { ولهم سوء الدار } أي سوء العاقبة وقوله تعالى : { ولقد آتينا موسى الهدى } وهو ما بعثه الله D به من الهدى والنور { وأورثنا بني إسرائيل الكتاب } أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى E وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوارة { هدى وذكرى لأولي الألباب } وهي العقول الصحيحة السليمة وقوله العاقبة ونجعل كلمتك سنعلي أنا وعدناك أي { حق الله وعد إن } محمد يا أي { فاصبر } : D لك ولمن اتبعك والله لا يخلف الميعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك وقوله تبارك وتعالى : { واستغفر لذنبك } هذا تهييج للأمة على الاستغفار { وسبح بحمد ربك بالعشي } أي في أواخر النهار وأوائل الليل { والإبكار } وهي أوائل النهار وأواخر الليل وقوله تعالى : { إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم } أي يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله { إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع { فاستعذ بالله } أي من حال مثل هؤلاء { إنه هو السميع البصير } أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان هذا تفسير ابن جرير .

وقال كعب وأبو العالية نزلت هذه الاية في اليهود { إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } قال أبو العالية وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلّم آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال ولهذا قال D : { فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير } وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه والله سبحانه وتعالى أعلم